

كَدْ أَنْسِي وَأَنَا أَتَجُولُ فِي شَوَّارِعِ حِيفَا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً، وَلَمْ أُغْرِيَ الانتِبَاهَ لِلوجُوهِ الْفَرَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تَمْرِي بِي ، وَلَا إِلَى اللُّغَةِ الْفَرَبِيَّةِ الَّتِي كَانُوا تَرْطُنُونَ بِهَا، عَيُونِي كَانَتْ تَلْمِي المَبَانِي وَالشَّوَّارِعَ، وَالخَوَاطِرُ تَوَارِدُ إِلَى ذَهْنِي بِسُرْعَةٍ عَجِيبَةٍ، أَنْصَتَ إِلَى وَالدِّي الَّذِي طَالَمَا حَدَّثَنِي عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْجَمِيلَةِ، وَأَنَّ هَذِهِ لَيْسَتِ الْمَرَةُ الْأُولَى الَّتِي أَشَاهَدُهَا، حَدِيثُ وَالدِّي عَنْهَا جَعَلَنِي أَرْسُمُ لَهَا شَكْلًا فِي مُخَيَّلَتِي، حَتَّى أَسْمَاءِ الشَّوَّارِعِ وَالْأَمَاكِنِ أَذْكُرُهَا، أَنْبَشَ عَنْ ذِكْرِيَاتِ أُمِّي الْحَبِيبَةِ فِي شَوَّارِعِ الْمَدِينَةِ، أَحَقُّ أُمْيَّةَ وَالدِّي مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَمْكُنَ مِنْ تَحْقِيقِهَا، تَوَقَّفْتُ عِنْدَ إِحْدَى السَّاحَاتِ، لَا شَكٌّ فِي أَنَّ هَذِهِ هِيَ سَاحَةُ الْحَنَاطِيرِ حَتَّى، هُلْ هَذِهِ سَاحَةُ الْحَنَاطِيرِ؟ نَظَرَ إِلَيَّ نَطْرَةُ قَاسِيَّةٍ كَمَنْ أَصَابَهُ الْمَرْضُ، وَأَجَابَنِي بِلِهَجَتِهِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُكَسَّرَةِ، بَعْدَ أَنْ لَمَعَ الْحِيَّرَةُ وَاللَّهَفَةُ فِي عَيْنِي : (لَا يَوْجُدُ فِي حِيفَا مَكَانٌ يَحْمِلُ مِثْلُ هَذَا الاسمِ)، غَيْرَ مِيَالٍ بِمَا تَرَكَهُ هَذَا الرَّدُّ فِي نَفْسِي مِنْ دَهْشَةٍ وَحَيْرَةٍ وَلَكِنْ مِمَّا يَكُنُ مِنْ أَمْرٍ، كَانَ إِحْسَاسُ غَرِيبٍ فِي تِلْكَ الْلَّحْظَةِ يَجْعَلُنِي أَجْرِمُ بِأَنَّهَا هِيَ، وَقَعَتْ عَيْنَايِي عَلَى مَسْجِدٍ، فِي حِينَ ارْتَفَعَتْ حَوْلَهُ الْبَنَيَاتُ الْأُخْرَى مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، لَا شَكٌ فِي أَنَّهُ جَامِعُ الْإِسْتِقْلَالِ الَّذِي طَالَمَا حَدَّثَنِي أُبِي عَنْهُ. وَفَجَأَةً تَذَكَّرَتْ بَيْتَنَا فِي حِيفَا، كَانَ يَقُولُ لِي وَالدِّي دَائِمًا، وَتَوَافِدُهُ تُطَلِّ عَلَى الشَّارِعِ مِنْ نَاحِيَتِينِ، شَعَرْتُ بِرَغْبَةٍ مُلْحَّةٍ فِي أَنْ أَرِيَ الْبَيْتِ الَّذِي كَانَ يَعِيشُ فِيهِ جَدِّي وَأَبْنَاؤُهُ. عَيْنَايِي تَحْرِكَانِ فِي مَحْجُورِيْهِمَا بِسُرْعَةٍ بِالْغَةِ وَفَجَأَةً الْبَيْتُ أَجَلَ، إِنَّهُ هُوَ وَانْدَفَعْتُ عَبْرَ الْبَوَابَةِ الْخَارِجِيَّةِ لَا لَوْيِي عَلَى شَيْءٍ وَمِنْ ثُمَّ عَبْرَ الْبَابِ الدَّاخِلِيِّ إِلَى دَاخِلِ الْبَيْتِ الَّذِي انْطَبَقَتْ عَلَيْهِ الْمُوَاصِفَاتُ اعْتَرَضَتْنِي امْرَأَةٌ شَقَّارَةٌ لَكُنِي فِي غُمْرَةٍ لَهَفْتِي لَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، لَمْ تَمْضِ بُرْهَةٌ حَتَّى وَجَدْتُ نَفْسِي مَحْوَطًا بِعَدَدٍ مِنْ رِجَالِ الشَّرْرَةِ الَّذِينَ يَبْدُو أَنَّ الْمُرَأَةَ قَامَتْ بِاِسْتِدَاعَائِهِمْ، قَبَضَ أَثْنَانُ مِنْهُمْ عَلَى يَدِيِّي بِحِيثِ مَنْعَانِي مِنِ الْحَرْكَةِ، بَيْنَمَا أَخَذَ ثَالِثَ يَدِقُعُنِي مِنِ الْخَلْفِ بِضَرِبَاتٍ قَوِيَّةٍ مِنْ كَعْبٍ سَلاَحٍ كَانَ فِي يَدِهِ، سَتَأْخُذُ فَقَطَ كَفَالَةً مِنْ أَهْلِكَ فِي الْقَدِيسِ، وَسَتَنْهَبُ إِلَى الْجَسْرِ مِباشِرَةً، وَلَنْ يُسْمَحَ لَكَ بِالْزِيَارَةِ مَرَّةً أُخْرَى، الَّتِي تَبَيَّنَ لِي أَنَّهَا أُورَاقِي الْخَاصَّةِ الَّتِي لَمْ أَعُدْ أَذْكُرُ مَتَى أَوْ كَيْفَ أَخْذُوهَا مِنِي .